مجلة الرائد

العدد : ٢٠٤ الموافق في رجب ١٤١٩ هجري ١٢ / ١٩٩٨ ميلادي

عنوان المقال : الزمن الإيماني أكبر وأوفى	بقلم : ماجد رسلان

الله عزّ وجلّ ، الواجدُ الماجدُ ، الحكيم الودود ، الظاهر الباطن ، العليم بكل شيء... يريد منا أن نرتفع إلى شأوٍ بعيد بمستوى تصورنا كيما يبلغ مدى الكمالات العالية السامية الشريفة... نسمو بها في شمم وإباء ، بإرادة حازمة جازمة ، وعزيمة حديد مَضاء...

كما يحب - سبحانه - أن تتراحب مداركنا فوق مستوى جلاميد المادة الصمّاء ، لتحلق أبداً في أجواء الغيب في سُبحات عميقة تجوز أعماقه وتستلهم الفقه الشامل ، والتصور اللمَّاح ، والرؤية الدقيقة التي لا تتكامل صورتها إلا بالتقاء الظاهر المرئي مع الباطن المسدول بسجف الغيب والذي لا تقوى على اختراق حُجبه إلا أشعة الإيمان ، المتقدة من جذوة الحقيقة الكبرى « لا إله إلا الله » التي قام عليها الكون كله : ظاهره وخافيه ، وروحه ومادیه...

فحين يختبر - عز وجل - المؤمن المسلم - بأي لون من ألوان البلاء أو بأي مصيبة من أنواع المصائب أو الفتن - فإنه جراء ذلك لا يجمد عند الحدث الظاهر مهما كانت ضخامته كبيرة ، وحادثته أليمة ، ولا يقف مشلول الفكر ، بارد العقل ، معطل الإرادة ، خافت الإيمان منتظراً دُبالته أن تنطفئ في مهب ريح صرصر عاتية !!

بل هو من فوره يتحرك نحوه بجرأة وثبات ، وصبر وأناة لملاقاته في كل ميدان ، وملاحقته - فكرياً ونفسياً - في كل زمان ومكان ، رابطاً قلبه وعقله ، ونفسه وروحه ، بحبال القَدَر المقدور ، واليقين المنصور ، وبالحكمة والعلم الإلهي الأزلي المحيط الشامل الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، مستضيئاً ومستنيراً ليله ونهاره بقوله تعالى : { **وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون** }[البقرة:٢١٦] { **وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعلَ الله فيه خيراً كثيراً** }[النساء:١٩]

أجل ! إنه لا يتقوقع محبوساً بشرنقة الإحباط واليأس ، بل ينتصب مرفوع الهامة ليردّ قدراً بقدر ، وحدثاً بحدث . فلطالما أنه مأمور بأخذ الأسباب والتمسك بالمسببات ، فهو لا يتوانى ولا يتلكأ بالسير للمواجهة ، متوكلاً على الحي القيوم صاحب المشيئة المطلقة والإرادة الطليقة ، والقوة العتيدة ، التي تقول للشيء كن فيكون !!

من هنا يكون تحركه النفسي الإيماني ، والعملي الحركي تحركاً هائلاً عميق الغور ، بعيد القاع ،

ينتج عنه خير أصيل ممدود ، لا يقف نفعه عند مستوى ذات نفسه ، بل بتعدى الآخرين ، متجدداً متنامياً كنبع دقّاق لا يكفّ عن الجريان ولا يهدأ عن التفجر والعطاء .

يقول أديب العربية الرافعي رحمه الله في كتابه الفذ : وحي القلم :

« ... فإنما النكبة مذهب من مذاهب القدر في التعليم ، وقد يكون ابتداء المصيبة في رجل هو ابتداء الحكمة فيه لنفسه أو لغيره ، وما من حزين إلا وهو يشعر في بعض ساعات حُزنه أنه قد غُيّبت فيه أسرار لم تكن فيه وهذا من إبانة الحقيقة عن نفسها وموضعها كما لألأ في سيف بريقه » .

ويقول عز وجل : { **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبلنا وإن الله لمع المحسنين** }[العنكبوت:٦٩] .

هذا من جانب الحركة والانبعاث والعمل والتدبر أما من جانب العمق النفسي على مستوى الصبر الجميل ، والتحمل لمواجهة الخطوب برباطة جأش فهو يعرج بمشاعره وأحاسيسه إلى مستوى مخلوقات الله الكبرى التي برأها في هذا الوجود ، وبثها في هذا الكون ، من أجرام سيّارة ، ومجرّات دوّارة ، وأفلاك تجوب أقطار الفضاء لا تهدأ عن الحركة استجابة لأمر ربها . يقول الله تعالى : { **لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون** }[يسن:٤٠].

فمثلاً عندما تنتهي حياة جرم من الأجرام ، ويأتيه أجله فيصيبه الدمار ، وتتناثر أجزاؤه في فضاء سحيق ، بعد نفاذ دوره ، وأداء مهمته على أكمل وجه ، فكم يستغرق من الزمن حتى يصل إلينا نبأ وفاته ، وخبر دماره ، والبقية الباقية من شعاعه ؟ رُبما يكون كذا سنة ضوئية ؛ وكم يساوي عمر الإنسان بالنسبة لسنة ضوئية واحدة ، هل تشكل جزءاً من كذا جزء من ومضة ضوئية ؟! فكيف إذن يكون الحال إذا ما استغرق مئة سنة أو ألف سنة أو مليون سنة ضوئية ؟!

فالحدث لهذا الجرم أو ذاك ربما يستغرق أعمار البشرية مجتمعة من قبل وجود آدم وذريته إلى قيام الساعة ، ومثلها معها إلى ما شاء الله !!

فالمؤمن المسلم حينما يقف أمام هذه الصورة متأملاً بعمق الإيمان عظمة خالقه وبارئه الذي سخر له كل ما في الكون ، ومنحه كل ما من شأنه في مهام استخلافه على هذه الأرض ، فإن تصوره الفكري ، ومداركه العقلية ، وتأملاته النفسية ، وسُبحات روحه الإيمانية ستتسع وتتراحب وسع هذا الكون وما حوى ، بل ، وأكثر وأكثر . لذا فإن المؤمن الذي يعيش في هذه التأملات لن يتعجل أمراً قضاه الله بعلمه ، وقدّره بحكمته ، ورتبه بمشيئته وإرادته... ولن يصيبه أي لون من ألوان اللجاج أو التبرم على أي حال كان في ضراء كنود مسته ، أو فتنة عمياء عضته ، أو انتفاش باطل في جولة خاسرة آلمته !

يقول عبقري العربية مصطفى صادق الرافعي رحمه الله : « ما أشبه النكبة بالبيضة تُحسب سجناً لما فيها ، وهي تحوطه وتربيه وتعينه على تمامه ، وليس عليه إلا الصبر إلى مدة ، والرضى إلى غاية... وما المؤمن في دنياه إلا كالفرخ في بيضته ، عمله أن يتكون فيها وتمامه أن ينبثق شخصه الكامل فيخرج إلى عالمه الكامل » .

وما أروع كلام النبي الكريم ﷺ حين يبشر ويحذر فيقول : « **إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن صبر فله الصبر ، ومن جزع فله الجزع** » [صحيح الجامع:١٧٠٦/١] .

ويقول الرافعي رحمه الله أيضاً : « وفي رجاء الله واليوم الآخر يعيش الإنسان عمره الطويل أو القصير كأنه في يوم يصبح منه غادياً على الحشر والحساب ، فهو متصل بالخلود غير معني إلا بأسبابه ، وبهذا تكون أمراضه وآلامه ومصائبه ليست مكاره من الدنيا ، بل هي المكاره التي حُفّت الجنة بها ، ولا يضره الحرمان لأنه قريب الزوال ، ولا يغرّه المتاع لأنه قريب الزوال أيضاً ».

نعم ! إن المؤمن سيقف على حقيقة دوره الفاعل والمركزي في هذه الدنيا ، وحقيقة نفسه ومكانتها الرفيعة عند بارئها ، إذا ما وَفت عهد الله وميثاقه ، والتزمت شريعته ومنهاجه ، أن يعطيه حياة الأبد ، ويمنحه منزلة الخلود مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقاً ، في جنة عرضها السماوات والأرض عند مليك مقتدر ؛ مقابل عمل محدود ، وعبادة متواضعة قام بها خلال عمره الذي هو أقل من ومضة إذا ما قيست بحياة أقل جرم من أجرام هذا الكون المأنوس ، عاشها في نظام كامل ، وخضوع تام لأمر بارئه حتى جاءه قدره المحتوم ، بعد ما أدى دوره المرسوم !

فهل عسانا نتنبه إلى مقياس زمننا الإيماني - في طاعة ربنا واستجابتنا له على الدوام في سرائنا وضرائنا ، ومنشطنا ومكرهنا - بالذي لا يُقاس به مع أقصر الأجرام أعماراً وأزماناً فضلاً عن أطولها وأكبرها ؛ وأن زمننا بمضمونه الرّباني ، ومقتضاه الإيماني هو أكبر وأوفى وأنبل وأعلى ؟!.

❁ ❁ ❁

إذا الإيمانُ ضاعَ فلا أمانا ولا دنيا لمنْ لم يحيَ دينا

ومن رضيَ الحياةَ بغير دينٍ فقد جعلَ الفناءَ له قرينا